قراءات في كتب

09 يوليو 2016

الإسلام والحداثة والتدين الجديد

بمشاركة:
د. عبد الهادي أعراب
د. رشيد جرموني

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الإسلام والحداثة والتدين الجديد
قراءة في كتاب: «إسلام السوق» لباتريك هايني

صالون جدل الثقافي - السبت 14 ماي 2016

إعداد وتنسيق
قسم الندوات

تقرير تركيبي

نظمت مؤسسة مؤمنون بلا حدود يوم السبت 14 مايو ندوة قراءة في كتاب «إسلام السوق» لباتريك هايني، بصالون جدل الثقافي، الكائن بالمقر المركزي للمؤسسة بالرباط، شارك في هذه الندوة الأستاذان الباحثان في علم الاجتماع، عبد الهادي أعراب (جامعة المولى إسماعيل) ورشيد الجرموني(جامعة شعيب الدكالي).

هكذا قدم الاستاذ عبد الهادي أعراب ورقة حول الكتاب **سجل فيها أن** تناول «**هايني**» لما أسماه «إسلام السوق» يأتي في سياق انشغاله بالديناميات الدينية والهوياتية التي عرفها العالم العربي والإسلامي، بدءا من منتصف تسعينيات القرن المنصرم. ولاهتمامه تحديدا بتحولات الإسلاموية ومنعطفاتها الراهنة، نبّه إلى مسارات جديدة من تعايش الأسلمة والعولمة، ضد الطروحات الاستشراقية التي اعتبرت المجتمعات الإسلامية محكومة بنمط تدين ثابت وضد الخطاب الإعلامي الأجنبي والسياسات الغربية المرددة لذات المنظور المختزل لتعددية هذه المجتمعات المختلفة.

وعلى الرغم من أنه أكاديميا، عالم سياسة ومتأثر بـ «**أوليفييروا**»، ويمثلان معا أطروحة فشل الإسلام السياسي وانحسار نموذج تدينه المنغلق؛ فقد وطّن مؤلفه ضمن سوسيولوجيا الدين عبر مقاربة زاوج فيها بين التحليل الاقتصادي والاجتماعي؛ متأثرا بـ «**ماكس فيبر**» لمّا هو مزج بين الاقتصادي والديني لبلورة أخلاقيات اقتصادية، واستلهم من «**بيير بورديو**» نظريته في «الحقل» لتجسيد تقاطع «إسلام السوق» مع مؤسسات الحقل الاقتصادي وثقافة الشركات التي تغذي نماذج الخطاب الذي يستخدمه. ولتأطير هذا التدين الجديد، تبنّى منهجا وصفيا تحليليا عبر عدّة مفاهيمية تركيبية غنية، كما اعتمد لجمع بيانات بحثه، على استجوابات غير مباشرة، هي شهادات لنشطاء إسلاميين حول قضايا وإشكاليات دينية من خلال الموقع الإلكتروني «أون لاين». وبملاحظته وتتبعه للممارسات الاجتماعية، متقمصا دور عالم الاجتماع، تنبّه للتحولات الاجتماعية الدقيقة التي مسّت العلامات والرموز والمفاهيم الدينية كالحشمة والعمل الخيري ونموذج الدعوة الجديدة وخطابها الإسلامي المنغمس في التجارة والمشاريع التنموية ونظريات المنجمنت.

ربط الباحث، حسب عبد الهادي أعراب، ما بين نمط من التدين الإسلامي والأسس الفلسفية للسوق، بعيدا عن النموذج الإسلاموي الذي أدمج الهوية بالسياسة والدين، لذا مثّل «الثورة المحافظة الأخرى»، وهو العنوان الفرعي للكتاب في نسخته الفرنسية لكنه عمق أطروحته ككل؛ ثورة محافظة تستعيد درس الثورة الأمريكية المحافظة وفكرة الدولة غير المتدخلة. هو إذن، يقول أعراب، عنوان دال يرسم خارطة المؤلف الكبرى من أن سيرورة التديّن بالعالم العربي الإسلامي لا تقوم على الصراع أو الاصطدام بالثقافة

الغربية بعد تراجع جاذبية الإسلام السياسي ويوتوبياته لصالح قيم الفردانية والنجاح الاقتصادي المستعارة من الغرب الذي طالما تمت شيطنته في النموذج الأول.

إنه تدين محبّب ومرن وغير مسيس (منزوع الدسم) يعبّر عن «برجزة» سيرورة الأسلمة وإعادة برمجة العرض الديني ليوافق العالمية، أو قل هو إسلام البورجوازية المتدينة الجديدة الخالي من أي تعبير ديني عن المحرومين والمهمشين والأقرب إلى التدين العملي الرأسمالي الذي رصده «**فيبر**» «لدى البروتستانت؛ هو روح أو توجّه جديد توطّن وانتشر وامتد إعلاميا (امتداد الشلال la diffusion en cascades) فصار ظاهرة مجتمعية لدى الطبقات الوسطى الحضرية. ويؤكد «**هايني**»، حسب أعراب، أن هذا الميل الليبرالي لإسلام السوق كتحول مرصود، اتسم بالمرونة في التعامل مع المرويات الكبرى للإسلاموية، فهو عمل تأويلي للمفاهيم تمتّع بقدر من «السيولة» أفرغتها من المضامين الفقهية القديمة وألبستها مفاهيم حداثية معلمنة؛ إلا أنها، بالنسبة إلى عبد الهادي أعراب، عملية خطرة ومكلّفة، لكونها «لعبة» اقتطاع مفاهيم إسلامية من سياقها اللغوي والحضاري وإذابتها في سياق معولم سائل، لهذا اعتبرها مجرد جهد ترقيعي وتوافقي بين الإسلام والغرب بشكل ضمني أحيانا وعلني أحيانا أخرى. فبإعادة تفسير وإحياء الإسلام في ضوء العولمة، تمكن فرسان إسلام السوق من الدخول إلى الحداثة لكن بعيدا عن بوابة عصر الأنوار، وهو ما يفسر أن تحديث الإسلام لم يتم تيولوجيا، وإنما توقف سوسيولوجيا عند حدود التكيف والمواءمة دون طرح بديل صلب، بينما الحداثة الدينية الحقيقية لا تتم إلا عبر نزع الطابع الأيديولوجي للديني، ولأن الأمر اقتصر هاهنا على العواطف والمشاعر بعيدا عن مراجعة الأسس النظرية، نكون بذلك «أمام مرحلة تحديث دون مشروع الحداثة». إن إسلام السوق إذن، لا يقدم إلا النموذج المحلي لروح الرأسمالية، أي نسخة محلية مرمّقة لإحياء المضامين والمعاني القديمة، تجعل من الإسلام مجرد محرك أو أداة للعلمنة أو إطارا أكثر منه محتوى.

من جهته، اعتبر الأستاذ **رشيد جرموني** أن كتاب «إسلام السوق» هو كتاب من الكتب المثيرة للجدل، والتي تستحق القراءة والتدارس والمناقشة، لأنه لم يتوقف عند مجرد التجميع المعلوماتي للمعطيات التي تفاعلت في سلوكيات ومواقف الأجيال المتلاحقة من أبناء وبنات حركات الإسلام السياسي، ولا حتى عند عموم المجتمع العربي الإسلامي، سواء في البلاد العربية، أو في البلاد الأوربية والأمريكية، بل إنه الكتاب/ الأطروحة، طرح مجموعة من الأفكار التي تعتبر بحق معبرة عن عمق التحول الذي ميز مسيرة الإسلام السياسي. فعلى الرغم من أن حركات الإسلام السياسي، تدعي أنها أتت لكي تواجه و«تصحح» موجة الحداثة وما بعد الحداثة، لكنها عمليا لم تستطع ذلك، لأنها تفتقد إلى رؤية ومشروع فكري وفلسفي عميق، ولأنها أنتجت مفاهيم ومسلكيات طالما تبين عدم قدرتها على الصمود، أمام المد الجارف لقيم السوق والعولمة والنيوليبرالية. فإذا كان أحد المنظرين الإسلامويين، يدعي أن هذه الحركات، استطاعت أن تعيد كتابة تاريخها الخاص، بعيدا عن التأثر والاستلاب لقيم التحديث والحداثة، فإن الوقائع المبسوطة في هذا الكتاب، أو غيره

من الأحداث والتحولات، تبين أننا، يقول رشيد الجرموني، أصبحنا أمام تدين بصيغة الفرد بدل الجماعة، وأننا نعيش زمن التسليع الديني في كل شيء، حتى أقدس الأشياء أصبحت تباع وتشترى، كالحج والعمرة والحجاب وما إلى ذلك من طقوس دينية تحولت بفعل الماركتينغ الديني إلى سلع رمزية تباع وتشترى كما تباع وتشترى بقية المنتوجات. أما الخطاب «الدعوي» بدوره، فقد تحول بفعل وجود متعهدين دينيين جدد، إلى وسيلة لترويج قيم استهلاكية يغيب فيها المعنى ويحضر فيها منطق السوق والبيع والشراء.

تأمل، يقول الجرموني، كيف بدأ هؤلاء المتعهدون بتقديم منتوجاتهم «الدينية» كأشرطة الوعظ والإرشاد والتنمية البشرية والنجاح الفردي والتفوق الإداري وتحقيق المعجزات، كما تقدم مباريات الكرة وحفلات الغناء. إننا نعيش زمن تحول القيم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. أضف إلى ذلك، أن حركات الإسلام السياسي، لم تستطع أن تحدث نقلة في تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية والجيواستراتيجية، بفعل تبنيها لخطاب مغرق في المحافظة، والاستقرار بدعوى عدم إحداث التغيير المفاجئ والثوري، ولعل ما وقع من أحداث في السنوات الخمس الأخيرة كفيل بإبراز مدى الإخفاق المدوي لهذه الحركات، مما ولد وسيولد ردة فعل في اتجاهين: الأولى، ذات طبيعة راديكالية يقودها «داعش» بتبنيه لخطاب العنف والتدمير والدمار، والثانية، ذات منزع استهلاكي تسليعي لأقدس الرموز، وهو الدين، حيث أصبح الدين سلعة من بين السلع التي تروج في سوق كبير اسمه «إسلام السوق».

قراءة في مؤلف «إسلام السوق» لـ «باتريك هايني»

د. عبد الهادي أعراب

كتب «**باتريك هايني**»[1] «إسلام السوق» في نسخته الأصلية سنة 2005، ولم يتم نقله عن الفرنسية إلا في سنة 2015؛ والحاصل أن المتأمل في ثنايا المؤلف وأهمية قضاياه، سيجد أن تعريبه جاء متأخرا، الأمر الذي فوت على القارئ العربي متابعة جزء مهم من تحولات الإسلاموية وبروز أشكال جديدة من التدين. يقع الكتاب في 256 صفحة ويتضمن بعد الإهداء، تقديما مفصّلا للباحثة «**هبة رؤوف عزت**»[2] ومقدمتين للمؤلف، الأولى خصصت للترجمة العربية والثانية أصلية، أما فصوله فهي أربعة، أولًا: تجاوز الإسلاموية (ص ص 45-87) وثانيًا: تدين تحركه قوى السوق(ص ص 89-119) وثالثًا: إسلام السوق. حركة إصلاح الذوات الدينية(صص121-162)، رابعًا: فاعلون لتحجيم الدولة (ص ص 163-187)؛ ثم الخاتمة(ص ص 189-198)، ويليها ملحق عنون بـ «أسلمة المنجمنت في قيم التحقق الفردي عند الإسلاميين»(ص ص 199-252)، وهو دراسة مشتركة بين المؤلف والراحل «**حسام تمام**»[3].

يأتي تناول «**هايني**» لما أسماه «إسلام السوق» في سياق الإجابة عن إشكالية الديناميات الدينية التي عرفها العالم العربي والإسلامي بدءا من منتصف تسعينيات القرن المنصرم[4]، منبها إلى تحول كبير مثّله تعايش حركة الأسلمة[5] والعولمة؛ منتقدا الأطروحات الاستشراقية التي اعتبرت المجتمعات الإسلامية محكومة

---

1 باحث سويسري متخصص في علم السياسة، خريج معهد الدراسات السياسية بباريس، وحائز على أفضل أطروحة فرانكوفونية للدكتوراه حول العالم الإسلامي، ومستشار لدى مؤسسات دولية منها "هيئة الصليب الأحمر" و"المجموعة الدولية لمعالجة الأزمات". أنجز دراسته حول اسلام السوق وهو في عمر 37 سنة. وإلى جانبها له كتابين مهمين هما: (L'ordre des caïds: Conjurer La Dissidence Urbaine au Caire, Karthala ,2005)، CEDEJ، يتحدث في الفصل الثالث منه عن أفول الأوهام ومنها تحديدا الإسلاموية وصدامها مع الثقافاتي الشعبية، وفي الخاتمة يوضح عملية تحديث السياسة. أما الكتاب الثاني: (Les Minarets de La Discorde; 2009) فقد اهتم فيه ببناء المساجد والمنارات بأوربا وتحديدا بسويسرا، وهي القضية التي طرحت نقاشا موسّعا بين من يعترضون على هذا الزحف العمراني والديني وبين من لا يرون مانعا في ذلك، علما أن الأمر في النهاية ليس مسألة هندسة معمارية، وإنما هي قضية سياسية ودينية كبرى تتصل بنوعية المهاجرين وبالمد الإسلاموي تحديدا.

2 باحثة وناشطة سياسية وصحفية، تعمل أستاذة للعلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، قدمت للنسخة العربية من اسلام السوق بعناوين منها: من طبائع الاستبداد إلى طبائع الاستهلاك – عن ابتلاع الحداثة لصيغ التمدن - وخطر الرأسمالية على التدين.

3 يعد حسام تمّام صحفيا وباحثا، مهتما بدراسة الحركات الإسلامية المعاصرة، وخاصة الإخوان المسلمين والاتجاهات السلفية الحديثة وتيارات التدين الجديد. تركزت اهتماماته حول شؤون الأقليات الإسلامية المقيمة في الغرب. أسس مرصد الظاهرة الإسلامية على الشبكة العنكبوتية عام 2005 كما أسس وترأس تحرير موقع الإسلاميون التابع لشبكة إسلام أون لاين قبل توقفه ليعود من جديد عبر موقع الإسلاميون نت.

4 يستدرك «هايني» في المقدمة المخصصة للترجمة العربية مؤكدا امتداد التحولات الدينية المرصودة إلى ما بعد «الربيع العربي»، معتبرا أن هذا الأخير ساهم في تبلور وتأكيد إسلام السوق، عبر توطيد أسسه الإيديولوجية، فالربيع العربي لم يوقف الديناميات الدينية الحاصلة بقدر ما عزز بروز توجهاتها الجديدة ومنها النموذج الذي جعل منه أطروحة مؤلفه: **إسلام السوق**، ص 21

5 ميز "هايني" بوضوح ما بين الإسلام السياسي بوصفه حركة اجتماعية تشكلت بعد حسن البنّا مؤسس حركة الإخوان، وبين الأسلمة وإعادة الأسلمة التي تحيل على زيادة الممارسة الدينية والعلامات الدالة عليها عيانيا: **إسلام السوق**، ص 33

بنمط تدين ثابت وكذا الخطاب الإعلامي الأجنبي والسياسات الغربية المرددة لذات المنظور الاختزالي لتعددية هذه المجتمعات المختلفة، غير قادرة على رؤية ملامح الدينامية الدينية الجارية[1]. فهو يمثل إذن إلى جانب «**أوليفيي روا**»[2]، أطروحة فشل الإسلام السياسي[3] وانحسار الإسلاموية بنموذج تدينها المنغلق أمام قوة العولمة وتأثير موجاتها الكاسحة[4].

يعد الكتاب حصيلة بحوث امتدت لسنوات في «مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والاجتماعية والقانونية» بالقاهرة وثمرة لنقاشات فكرية همّت الديناميات الدينية والهوياتية، خاضها المؤلف مع متخصصين مثل «**أوليفيي روا**»، إلى جانب تفاعله اليومي والمباشر مع أطراف مسلمة منها زوجته. وبالرغم من أنه أكاديميا عالم سياسة، فقد صرّح[5] أن مؤلفه يحمل هوية سوسيولوجية وتحديدا سوسيولوجيا الدين، عبر مقاربة زاوج فيها بين التحليل الاقتصادي والاجتماعي؛ والثابت أن تأثره النظري واضح تجاه «**ماكس فيبر**» في مزجه بين الاقتصادي والديني وتأكيد دور هذا الأخير في بلورة أخلاقيات اقتصادية، كما أن توظيفه أوضح لنظرية «الحقل» لدى «**بيير بورديو**»، لتجسيد تقاطع «إسلام السوق» مع مؤسسات الحقل الاقتصادي وثقافة الشركات الجديدة التي تغذي نماذج الخطاب الذي يستخدمه.[6]

ولتأطير هذا التدين الجديد، جغرافيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، توسّل الباحث منهجا وصفيا تحليليا عبر عدّة مفاهيمية تركيبية غنية منها: (تسليع الإسلام_ إسلام المشاريع_سوق الحلال والبركة_أسلمة الحداثة الغربية_علمنة التديّن_عصرنة الدعوة_عولمة الأسلمة_ تشفير الهوية الدينية_ المنجمنت الأخلاقي_عالم الألبسة المعولم_الهويات الموقّعة_ لاهوت الازدهار_ الثروة الفاضلة_ أسلمة العولمة_الحداثة المسلمة _استهلاكية الحشمة ...) ولجمع بيانات بحثه، اعتمد استجوابات غير مباشرة هي شهادات لنشطاء إسلاميين حول قضايا وإشكاليات دينية، كما تابع النقاشات الدائرة على الموقع الالكتروني «أون لاين» بين مختلف الأطياف الدينية والتيارات الإيديولوجية. ولعل إقامته بمصر لفترة وتعلمه العربية واعتماده على باحث عربي هو الراحل «**حسام تمّام**» ميسّرا ووسيطا ورفيقا أيضا، يذكرنا بمنهج الأنثروبولوجيين والرحّالة

---

1 **إسلام السوق**، ص 25

2 يبدو عبر مجمل الكتاب أن "هايني" متأثر ب"أوليفيي روا"، ليس فقط على مستوى اقتسام نفس الفكرة حول فشل الإسلام السياسي وتآكل بنياته، وإنما حتى على مستوى المفاهيم، مثل: الإسلام المعولم وعولمة الإسلام والأسلمة. راجع:

Denis Lensel «L'islam égyptien se transforme»: Entretien avec Patrick Haenni,17avril,2003. **http://religioscope.info/article_139.shtml**

3 Olivier Roy, ***L'échec de L'Islam Politique***, Paris, seuil, 1992.

4 Haoues Seniguer, «Haenni Patrick, L'islam de marché: l'autre révolution conservatrice, éd. du Seuil, 2005, 110 p.Rougier Bernard (dir.), Qu'est-ce que le salafisme, PUF, coll. Proche-Orient, 2008, 288 p.», ***Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*** [En ligne], 127 | juillet 2010, mis en ligne le 25 janvier 2010. URL: http://remmm.revues.org/6536.

5 أنظر مقدمة الكتاب المخصصة للنسخة العربية: **إسلام السوق**، ص 26

6 **إسلام السوق**، ص 37و38

في اختراق المجتمع والثقافة المدروسين عبر وسطاء وأدلاّء أهليين ومحليين[1]. فإلى أي حد وفّق في تسليط الضوء على التحولات الدقيقة للتدين الإسلامي؟ لكن قبلا لماذا اختار لمؤلفه عنوانا مثيرا رابطا بين الإسلام دينا والسوق بدلالته الاقتصادية؟ وما دلالة أن تكون الثورة محافظة؟

نفى «هايني» أن تكون إثارة الجدل وراء اختياره لعنوان اعتبره تحليليا ونقديا، ربط فيه «ما بين أنماط معينة من التدين الإسلامي والأسس الفلسفية للسوق».[2] معرّفا «إسلام السوق» بأنه: «مزيج من النزعة الفردانية المتعولمة ونزع للقداسة عن الالتزام التنظيمي، بما يتضمنه ذلك من التخلي عن الشعارات الكبرى التي كانت تدعو إلى أن الإسلام هو الحل وإعادة النظر في فكرة شمولية الإسلام لكل مناحي الحياة»[3]. يتعلق الأمر بتدين تطور وتدعّم عالميا لينافس النموذج الإسلاموي الذي ربط الهوية بالسياسة والدين، لذا مثّل «الثورة المحافظة الأخرى» وهو العنوان الفرعي للمؤلف في نسخته الفرنسية وعمق أطروحته ككل؛ ثورة محافظة تستعيد درس الثورة الأمريكية المحافظة وفكرة الدولة غير المتدخلة قياسا للنموذج اليعقوبي الفرنسي. هكذا يمنح العنوان بشقيه، انطباعا قويا بأننا أمام نموذج إسلام على الطريقة الأمريكية، ممّا زاده جاذبية لا تخلو من استفزاز، لأن الربط فيه واضح بين الدين والاقتصاد والفصل فيه أوضح ما بين الإسلام والسياسة؛ هو إذن عنوان دال يرسم منذ البداية خارطة المؤلف الكبرى من أن سيرورة التديّن بالعالم العربي الإسلامي لا تقوم على الصراع أو الاصطدام بالثقافة الغربية بعد تراجع جاذبية الإسلام السياسي ويوتوبياته، لصالح قيم الفردانية والنجاح الاقتصادي المستعارة من الغرب الذي طالما تمت شيطنته في النموذج الأول[4].

تتأسس أطروحة «**هايني**» إذن، على تفاعل ممارسات التديّن الإسلامي إيجابا مع فلسفة للسوق بعد أن داخلتها ثقافة إسلامية جديدة أرست علاقة مغايرة وأكثر انفتاحا مع العالم[5]. وبالضد من أطروحة صدام الحضارات وأطروحة الحركات السياسية التي تضع الهوية مقابلا للعولمة، يؤكد تقاطع ديناميات العولمة وديناميات الهوية[6]، مواجها في مستوى آخر العلمانية التي تدعو لإسلام الشأن الشخصي والإسلاموية ذات الطابع الشمولي. وبملاحظته وتتبعه للممارسات الاجتماعية متقمصا دور عالم الاجتماع، تنبّه للتحولات الاجتماعية الدقيقة التي مسّت العلامات والرموز والمفاهيم الدينية كالحشمة والعمل الخيري ونموذج الدعوة، ببروز خطاب إسلامي منغمس في التجارة والمشاريع التنموية ونظريات المنجمنت[7]. ولئن كان هذا الانفتاح

1 نذكر على سبيل المثال اعتماد «فستر مارك» في دراسته لأنجرة بشمال المغرب على وساطة مخبره ومرافقه «عبد السلام البقالي» واعتماد الرحالة «شارل دو فوكو» على التاجر اليهودي «مردوشي أبي سرور» بحكم خبرته في مرافقة القوافل التجارية خصوصا بجنوب المغرب.

2 **إسلام السوق**، ص 25

3 **إسلام السوق**، ص 23 و24

4 **إسلام السوق**، ص 24 و28

5 **إسلام السوق**، ص 25 و26

6 **إسلام السوق**، ص 28

7 **إسلام السوق**، ص 26

في مراحل أولية موجّها لتطوير فاعلية أداء الهياكل الإسلامية، فإنه صار من الرسوخ والثبات بما يكفي لبناء ذوات إسلامية ولإعادة صياغة الإسلام نفسه وفق مفاهيم لخصها «هايني» في «لاهوت النجاح»[1].

لقد رأى في إسلام السوق احتجاجا داخليا هادئا على النماذج الشمولية للإسلاموية[2]، مثّله شباب مثقف نشأ وهو على ثخوم الإخوان، متأثرا بالعولمة وبمفاهيم الليبرالية والرأسمالية، فطوّر أمزجة دينية مغايرة لدى الفئات المتوسطة[3] بمسحة صوفية بعيدة عن السياسة[4]، ليفقد الخطاب الإسلاموي بالتدريج وهجه بعد أن تضاعفت دعوات مراجعته من الداخل[5] والاعتراض على هرمية تنظيماته وجمودها.[6] وبالتخلي عن شعار «الإسلام قادر على احتواء كل شيء» وفك الارتباط مابين الهوية والسياسة لصالح مساحات كبرى للفرد وللذات المنطلقة المتحررة[7]، لم يعد الهدف الأسمى هو استعادة الخلافة أو تطبيق الشريعة وإنما بناء مجتمعات مدنية مزدهرة.[8] هاهنا مثّل «إسلام السوق» صوت «اتجاه إسلاموي ناقم» على طريقة عمل تنظيماته دون مغادرتها، واجدا في النضال الإسلامي لحماية البيئة وتمكين المرأة أو «النسوية الإسلامية» والتنمية الذاتية وحوار الأديان بعض ملامح الالتزام الديني.[9]

إنه تدين محبّب ومرن وغير مسيس (منزوع الدسم) يعبّر عن «برجزة» سيرورة الأسلمة وإعادة برمجة العرض الديني ليوافق العالمية، بعد تنامي الحراك الاجتماعي للبورجوازية المرتبطة بعالمية الأسواق والتجارة والرفاه وبروز متدينين من التجّار ورجال الأعمال المتمسكين بتجديد الدين.[10] أو قل هو إسلام البورجوازية المتدينة الجديدة[11] الخالي من أي تعبير ديني عن المحرومين والمهمشين[12] والأقرب إلى التدين العملي الرأسمالي الذي رصده «ماكس فيبر» لدى البروتستانت؛ وهو تحديدا «ليس حركة مؤسسة على حزب أو تنظيم ولا تيارا إيديولوجيا كالسلفية أو سياسيا كالإسلام السياسي»[13]، بل روح أو توجّه جديد تمكّن

---

1 وقد تعرض له بتفصيل في الفصل الثالث من المؤلف، الصفحات: (128 إلى 134).

2 **إسلام السوق**، ص 25

3 ومن هذا الاعتراض على الالتزام التنظيمي موقف «فتحي يكن» القيادي اللبناني الإسلاموي، بشأن التربية الإخوانية المتسمة بالطاعة والإمتثالية والإخضاع وقيامها على الولاء للتنظيم أكثر مما تقوم على الولاء للإسلام ذاته. هكذا سجّل على هذه التنظيمات الإسلاموية من الداخل الجمود وعقلية الاحتكار والوصاية والاستبداد والابتعاد عن الواقع. **إسلام السوق**، الصفحات: 47 و48 و49

4 **إسلام السوق**، ص 26 و27

5 نذكر مثلا أن واحدا من كبار الإخوان وهو الدكتور أحمد النجّار تراجع عن فكرة البنوك الإسلامية مثلا، بعدما كان من رواد ما يسمى ب "الاقتصاد الإسلامي".

6 **إسلام السوق**، ص 52

7 **إسلام السوق**، ص 87

8 **إسلام السوق**، ص 40

9 **إسلام السوق**، ص 53 و54

10 **إسلام السوق**، ص 36

11 **إسلام السوق**، ص 123 و124

12 **إسلام السوق**، ص 186

13 **إسلام السوق**، ص 24

من التوطّن والتأثير في حقائق الإسلام المعاصر والتجلّي في أنماط الحياة وأشكال الدعوة الجديدة، سرعان ما انتشر إعلاميا (امتداد الشلال la diffusion en cascades) ليبتعد عن إطاره النخبوي ويصير ظاهرة مجتمعية لدى الطبقات الوسطى الحضرية.[1]

يؤكد «هايني» أن الميل الليبرالي[2] لإسلام السوق كتحول مرصود، اتسم بالمرونة وبذهنية جديدة في التعامل مع المرويات الكبرى للإسلاموية، نزعت عن الجهاد حمولته العنيفة ليصير أكثر سلمية «جهاد النهضة» أو «الجهاد المدني» واستعاضت عنه بالعمل التطوعي والحركة الاجتماعية أو بـ «جهاد إلكتروني» يدمر المواقع المعادية للإسلام ناقلا الجهاد العسكري إلى العالم الافتراضي.[3] إنه عمل تأويلي للمفاهيم تمتّع بقدر وافر من «السيولة[4]» أفرغت الجهاد من مضامينه الفقهية القديمة وألبسته مفاهيما حداثية معلمنة.[5] إلا أنها عملية مكلّفة وتتضمن قدرا من الخطورة، لكونها «لعبة» اقتطاع مفاهيم إسلامية من سياقها اللغوي والحضاري وإذابتها في سياق معولم سائل[6]يفقدها خصائصها الأساسية[7]، لهذا اعتبرها «هايني» مجرد جهد ترقيعي وتوافقي[8]بين الإسلام والغرب بشكل ضمني أحيانا وعلني أحيانا أخرى[9].

تؤشر هذه التوجّهات الورعة الما بعد حداثية لممثلي التدين الجديد في النهاية، على تفكك المشهد الإسلاموي من الداخل لصالح التوافق مع الثقافة الأمريكية وقيمها الاستهلاكية، بظهور شركات: مكة كولا وزمزم كولا وقِبلة كولا وعرب كولا[10]وربط الحجاب بالموضة والعلامات التجارية وإعادة تعريف الزكاة في إطار إنسانوي غربي ومزج النشيد الإسلامي بإيقاعات عصرية جديدة.[11] كما أبانت موجة المدارس الإسلامية عن بعد تسويقي واسع، بمنح شهادات التعليم الأجنبي للأرستقراطية الجديدة وتوظيف معلّمات محجّبات خريجات الجامعات الغربية أو أجنبيات معتنقات للإسلام؛ وبدورها ساهمت الثقافة الجماهيرية في تغلغل المنتجات الدينية وتزايد مساحتها وترسيخ قيم التهادي والاستماع للموسيقى واستهلاك الفنون والإقبال

---

1 **إسلام السوق**، ص 37

2 لشرح هذا الميل، يشير «هايني» أكثر من مرة إلى مفهوم التكيف مع السوق كإطار جديد للأسلمة التي تقود إلى سلوكات مشابهة لأخلاقيات المسيحية في صيغتها البروتستانية. فالعولمة لا يتم قبولها وإنما يتم عيشها حتى في الحقل الديني، ليس بمنطق الاقتباس فقط بل كابتكار جديد؛ أنظر: Denis Lensel «L'islam égyptien se transforme», op,cit

3 **إسلام السوق**، ص 54 و55

4 حصل الشيء ذاته مع مفهوم الخلافة، فقد تمت مراجعته مع زعيم الإصلاحيين «عبد المنعم أبو الفتوح»، ليحمل دلالة تجمع عددا من الدول والأمم من خلال وحدة إقليمية شبيهة بالاتحاد الأوربي.

5 **إسلام السوق**، ص 58

6 من ذلك إضفاء الطابع العلمي على العلاج بالأعشاب في سياق ما سمي بالطب البديل والربط بين العلاج بالأعشاب والطب النبوي وأسلمة اليوكا والزان في تقريب غير دقيق ما بين الصلوات البودية وحركات الصلاة الإسلامية.

7 **إسلام السوق**، هامش ص 59

8 **إسلام السوق**، ص 34

9 **إسلام السوق**، ص 62

10 **إسلام السوق**، ص 114

11 **إسلام السوق**، ص 34 و35

على مواقع شبابية للدردشة الإسلامية. وعبر شركات الإعلام الكبرى، دخل «الديني» عالم الممنوعات الأخلاقية وتحول الدعاة إلى نجوم كما بات التأكيد على الهوية الدينية لا يتم إلا عبر وسائط علمانية.[1] وبالتدريج ازداد تشفير الهوية الدينية واستبدالها بخطاب أخلاقي حوّلها إلى محض علامة تجارية[2]، وبصنع مخيال إسلامي يقوم على الفرجة والاستهلاك وإثارة الإعجاب، ستتوثق الصلة بين الأسلمة والعلمنة[3] لتبلغ أوجها بالتخفف من العناصر الدينية نفسها، فنكون أمام أسلمة جديدة للثقافة الغربية والأمريكية تحديدا.

يتوجه إسلام السوق إلى إعادة بناء نموذج فرداني قوي اقتصاديا يعيد الفخر للمسلم الجديد.[4] ولئن رأى البعض في سيرورة هذا التحول قدرة الرأسمالية على نمذجة الأخلاقيات والجماليات الإسلامية في عالم الاستهلاك بما يهدد نمط الحياة الدينية، فإن فرسان الدعوة الجديدة يصفون هذه المرحلة المتقدمة من التحول بـ «النضج واستيعاب مبادئ الاسترخاء والترفيه»[5]، فبعد الانتقال إلى عالم اللباس والعارضات المحجبات والأكل المعولم[6]، لم تسلم أشكال الدعوة الدينية نفسها من الدعابة والمرح والتنافسية والارتباط بروح العصر[7]. يبدو ذلك واضحا في نماذجها العصرية الكبرى كالوجه الدعوي الإعلامي «عمرو خالد» بمصر و«طارق السويدان» بالخليج.[8] ألسنا هاهنا أمام مرحلة تشهد على أن السوق صار «قناة التعبير عن التدين الأكثر تمتعا بالشرعية»؟[9]

تأسست قيم الدعوة الجديدة ضد ثقافة الكسل والعجز والفشل فيما يشبه إدانة أخلاقية للفقراء والعاطلين وانتصرت بالمقابل لعقيدة النجاح استجابة لمنطق الغنى والثروة[10]، بتقريض إسلام المال والقوة ما دام الدين ليس حكرا على الفقراء والثروة ليست إثما أو معصية.[11] وخلافا لمن يتصورون الإسلام يضاد الغنى والأغنياء[12]، استمدت هذه الدعوة شرعيتها الدينية والتاريخية من سيرة النبي وبعض صحابته ممن كانوا

---

1 **إسلام السوق**، ص 93و 94

2 **إسلام السوق**، ص 104

3 أوضح هايني أن"العلاقة بين الأسلمة والعلمنة ليست إذن متناقضة بالضرورة. في الواقع هناك عمليتان متقاطعتان تحدثان بالتزامن. من جهة تتأسس أشكال ثقافية جديدة تحمل طموحات دينية(...) ورغم ذلك فهذه الاستجابات تنطوي على شيء من التضحية المرتبطة بمنطق التسويق نفسه"، المرجع نفسه، ص 110 و111

4 **إسلام السوق**، ص 116

5 **إسلام السوق**، ص 70

6 **إسلام السوق**، ص 78

7 **إسلام السوق**، ص 80

8 راجع التفاصيل: **إسلام السوق**: الصفحات من (80 إلى 86).

9 **إسلام السوق**، ص 89

10 **إسلام السوق**، ص 191

11 **إسلام السوق**، ص 134

12 **إسلام السوق**، ص 129 و192

تجّارا ناجحين[1]، وبهذا يحوز إسلام السوق منظومة تبريرية لتكريس حالة من البرجزة[2] تستلهم نموذج الثروة الفاضلة والخلاص عبر الأعمال الخيرية وتعوض النظال السياسي بالخطاب الديموقراطي والانعتاق من وصاية الدولة الراعية[3]، مقابل تعزيز «المجتمع المدني الفاضل» والمزاوجة بينه وبين المسجد.[4] فقد استوعب دعاة التدين الجديد بذكاء براغماتي، أن رهانهم الرابح هو إدماج الاقتصاديات الحديثة داخل النظم الدينية التقليدية، ليكتسب خطابهم القوة والفعالية المطلوبتين، وبإعادة تفسير وإحياء الإسلام في ضوء العولمة، تمكنوا من الدخول إلى الحداثة لكن بعيدا عن بوابة عصر الأنوار[5]، وهو ما يفسر كون تحديث الإسلام[6]لم يتم تيولوجيا وإنما توقف سوسيولوجيا عند حدود التكيف والمواءمة دون طرح بديل صلب، بينما الحداثة الدينية الحقيقية تمر أساسا عبر نزع الطابع الإيديولوجي للديني، والحال أن الأمر اقتصر هاهنا على العواطف والمشاعر بعيدا عن مراجعة الأسس النظرية، لنكون بذلك «أمام مرحلة تحديث دون مشروع الحداثة»[7]. إن إسلام السوق إذن، لا يقدم إلا النموذج المحلي لروح الرأسمالية، أي نسخة محلية مرمّقة لإحياء المضامين والمعاني القديمة، تجعل من الإسلام مجرد محرك أو أداة للعلمنة أو إطارا أكثر منه محتوى.

تسمح لنا قراءة مؤلف «هايني»، وفي أعقاب ما سبق طرحه، أن نؤكد نقاط قوته الأساسية فيما يلي:

1- أنه لا زال يتمتع بقدر من الراهنية رغم مرور عشر سنوات على كتابته، ولعل الصدى الكبير[8] الذي حققه سواء فيما كتب بالعربية أو بالفرنسية يؤكد في مستوى آخر أصالته الفكرية، فهو جهد تحليلي لتحولات الظاهرة الإسلاموية ومتابعتها داخليا وخارجيا في عالم سائل ومتداخل الأحداث، تميز بدقة الوصف وثرائه ممّا يعكس قدرة صاحبه على ممارسة الملاحظة الدقيقة وبمتابعة الظواهر والقضايا والتقاط التفاصيل والجزئيات المدروسة والانتباه أيضا للعلامات السيميائية الجديدة التي انتزعت القاموس الإسلامي من بنائه التقليدي الفقهي وربطته بحقل معرفي ودلالي ينتمي للثقافة الغربية.

---

1 **إسلام السوق**، ص 180 و181

2 من المهم الإشارة إلى أن عمرو خالد مثلا وهو رائد الدعاة الجدد ينتمي إلى أسرة ارستقراطية النشأة، فوالده كان طبيبا كبيرا بالقصر الجمهوري ووالدته سليلة وزير أول في عهد الملك فاروق.

3 **إسلام السوق**، ص 80 و172

4 **إسلام السوق**، ص 176

5 **إسلام السوق**، ص 187

6 في حواره مع "دينيس لينسيل" يذكر "هايني" أن هناك نماذج مختلفة من التوجّه التحديثي للإسلام منها "الإسلام الإنسانوي"، ممثلا في جمال البنّا بمصر ومحمد الشرفي بتونس وطارق رمضان بالغرب، إلا أنه توجّه لم يستطع أن يتجاوز رحاب أوساطه الأكاديمية، والأمر غير مفصول عن الطلب المتزايد على هذا النمط الديني الجديد، لكن دون عمل ذهني وثقافي للمعتقد ذاته.

7 راجع حواره:

Denis Lensel «L'islam égyptien se transforme»: Entretien avec Patrick Haenni, 17avril, 2003, op, cit.

8 يتضمن هذا الصدى كتابات تتفق مع الباحث وأخرى تختلف معه، وان كان بعض من تفاعل مع أفكاره مثل عبد الرزاق سعيد بلعباس، فهم من السوق الذي أشار إليه هايني مجالا للبيع والشراء مؤكدا قدمه قدم التاريخ، بينما هو مجموعة من القيم الاقتصادية والأسس الفلسفية. أنظر: عبد الرزاق سعيد بلعباس، مراجعة علمية لكتاب إسلام السوق الثورة المحافظة الأخرى، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، م 21، ع 2، (ص ص 137-152)، 2008، ص 140

2- تميز المؤلف بمتابعته لتحول غاب عن الرصد من قبل الملاحظين الغربيين ممّن قصروا اهتمامهم على الإسلام الجهادي، دون أن يلتفتوا إلى محاولات الاندماج التي تشي بها الأنماط الجديدة للتدين. هنا نجد «هايني» كمن يوجه خطابه للغرب كاشفا عن صورة للمسلم غير التي استقرت في العقدين الأخيرين من أنه الإرهابي العنيف، بل صورة لمسلم ليبرالي؛ ومن ثمة يطرح الإمكانات الكبرى واقعيا لتعايش الإسلام وقيم الغرب الاستهلاكية رغم اختلافهما النظري؛ بل إنه يجد في إسلام السوق، الشريك المثالي لأمريكا ليس فقط في سياستها الشرق أوسطية، وإنما في صراع الحداثة التي تواجهها مع عصر الأنوار الأوربية ومنطق العلمانية.

3- توفق المؤلف سوسيولوجيا في تناوله للدين من حيث هو فعل اجتماعي لا ينفصل عن الفاعلين الاجتماعيين والفاعلين الدينيين، سواء بالنسبة للإسلاموية ورموزها أو لإسلام السوق وممثليه ودعاته. وبأسلوب جذّاب، كثّف بياناته مقدما أمثلة غنية عن تحولات الفضاء الديني، يتداخل فيها ما هو قابل للوصف كالأجساد والأفضية والألبسة والأشرطة والشركات والمدارس..، بما هو تحليلي استقرائي. وقد أسعفه تركيب المفاهيم في توضيح مسار الديناميات الدينية المدروسة، برسم التقابل بين الإسلام السياسي المتشدد وإسلام السوق المنفتح في شكل ثنائيات منها: (إسلام متشدد متجهم/ إسلام مرن مرح)(حجاب الحشمة/ حجاب الموضة)(قطب والمودودي والبنّا/عمرو خالد وطارق السويدان)_(المسلم المناظل/ المسلم الناجح) (المسلم المستهلك/ المسلم المنتج)...، مفردا للرموز مساحة مهمة في محاولة للإمساك بعمق الديناميات الجديدة وتفاصيلها راسما صورة متكاملة عن المتدين الجديد.

لكننا مع ذلك نسجل مجموعة من الملاحظات النقدية حول المؤلف وصاحبه، نسوقها كالتالي:

1- ثمة انتقائية سافرة في جمع الأمثلة التي تناسب أطروحته وتثبت صحتها، منها أنه اقتصر على النموذج المصري والتركي نسبيا، بينما أغفل تحولات أخرى كالتي همت حركة «التوحيد والإصلاح» المغربية، كما اكتفى بأسماء محددة من الدعاة الجدد الممثلين لإسلام السوق، دون دراسة منهجية لمضمون خطاباتهم بشكل دقيق. وفي متابعته لحركة الإخوان، ركز على المدينة الحديثة كفضاء للرأسمالية ومظاهر التسليع، مغفلا ترييف هذه الحركة مدينية المولد والنشأة وتضاعف منخرطيها في الأرياف وتبنّي قيم الطاعة والخوف والمحافظة والتنميط؛ فقد غابت عنه مثل هذه السيرورة الاجتماعية المهمة داخل حركة الإخوان[1]،

1 انتبه "حسام تمّام" لهذه السيرورة في دراسة تعد آخر أعماله بعنوان "ترييف الإخوان"، نشرت بالانجليزية ضمن أعداد سلسلة "مراصد" التي كان يشرف عليها، بوحدة الدراسات المستقبلية. وفيها طرح إشكالية التحديث المؤسسي والقيمي داخل الحركة الإسلامية مسجلا أن التغيرات الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين المصرية منذ تسعينيات القرن 20، تستحق التوقف والبحث لمّا بدت الجماعة عبر المظاهر القيمية والسلوكية أقرب إلى انتشار ثقافة ريفية داخلها، ممّا يشي بـ "ترييف" قوي مس تراثها كجماعة دينية، بعد أن غدت أكثر امتدادا في المناطق التي ظلت خارج تأطير حركات التجديد الديني، خلافا لما كان في الستينيات والسبعينيات، لمّا كانت تتسم بخصوصية حضرية قوية واجدة في الطلبة والأساتذة والمدرسين والمتعلمين أو «الأفندية» خزانها الاجتماعي الكبير.

وهو ما ألمحت إليه «هبة عزت رؤوف»[1] إلى حد تساؤلها عن الخط المنهجي للمؤلف، هل يتموضع حقا في سوسيولوجيا الدين أم سوسوسيولوجيا التمدن الرأسمالي؟

2- نلمس انتقائية المؤلف أيضا في كونه استند منهجيا إلى شهادات نشطاء ينتقدون فكر الإخوان وتنظيماتهم في قضايا البنوك والمدارس الإسلامية والبرمجيات الدينية، منتهيا إلى القول بتراجع الإسلام السياسي وشعاراته الكبرى، دون إعطاء أي فكرة عن حجم العينة ومواصفاتها ولاعن معايير انتقائها من خلال موقع «أون لاين»، كما أنه لم يجر مقابلات مباشرة مع المعنيين من الأطراف الأخرى، مغفلا تحليل طبيعة القيادات في الحركة الإسلامية وعلاقتها بالرؤية السائدة[2]. فلماذا لم يتوقف كثيرا عند السلفية[3]بوصفها نموذجا مغايرا في الانتماء إلى الإسلام؛ ألأنها فقط تجسد صنفا يتعارض مع أطروحته الجوهرية عن تحول الإسلاموية؟ ألم تلتحق أعداد كبيرة من الإسلامويين بالسلفية، بما يجعلها ملجأ للغاضبين والناقمين على الهياكل والتنظيمات الإخوانية[4]؟

3- أكد «هايني» في نقده لحركات الإسلام السياسي، عجزها عن المحافظة على مروياتها الكبرى أمام قوة السوق وقيمه، ومن ثمة استحالة بناء اقتصاد إسلامي خالص بعيدا عن النظام العالمي؛ لكن نتساءل إلى أي حد نجد الجيل الجديد للإخوان ناقما على مرجعيته الإسلاموية العميقة؟ أليس إسلام السوق بتطبيعه مع ثقافة المنجمنت، شكلا أو نفسا مغايرا فحسب للإسلاموية؟ ألسنا أمام استراتيجية جديدة للإسلاموية المعاصرة في تليين صورتها للوصول إلى جمهور أوسع؟ ثم هل التكيف مع الثقافة الغربية يجعل إسلام السوق خالصا من أي بعد ثوري وتيوقراطي؟ وهل ببقاء قوى سياسية وخطابات دينية تحرّض على الاستبداد وفساد الأنظمة، نكون فعلا أمام «ما بعد الإسلاموية»؟ وحتى إذا قبلنا بنجاح إسلام السوق، فما هي حدود مقاومته وصموده وبقائه؟

4- أوضح «هايني» أن إسلام السوق نموذج انتشر في مجموع القارّات الأربع[5]، ولم يعد مقصورا على صنف من الفاعلين الدينيين، بدليل حضوره لدى أطراف مختلفة مثل السلفية والإخوان المسلمين والصوفية، لكنه لم يقنع القارئ بما يكفي من الأدلة. والواضح أن منطلق الفكرة التي تحرك بحثه ككل ويحاول إقناعنا بها على نحو أكبر، هي أن التحولات المرصودة لا تمس العالم الإسلامي من حيث هو رقعة جغرافية، بل

---

1 **إسلام السوق**، ص 11

2 أنظر مقدمة هبة رؤوف: **إسلام السوق**، ص 18

3 جسد الاهتمام بالسلفية موضوع دراسة جماعية بعنوان: «Qu'est ce que le Salafisme?» تحت اشراف Bernard Rougier، شارك فيها مجموعة من الباحثين في العلوم الاجتماعية بقصد فحص مرجعياتها النظرية وتطبيقاتها الملموسة. أنظر: Rougier Bernard (dir.), Qu'est-ce que le salafisme, PUF, coll. Proche-Orient, 2008, 288 p.

4 حاول حسام تمّام في مؤلفه "تسلّف الإخوان. تآكل الأطروحة الإخوانية وصعود السلفية في جماعة الاخوان المسلمين" سنة 2010، رصد التحولات الأخيرة التى عرفتها جماعة الإخوان المسلمين، مبينا تنامي توجهات سلفية كانت موجودة بالقوة في جسم الجماعة وصارت وجودا بالفعل، ابتعدت بها عن الرؤية التوفيقية التي عرفت بها في مرحلة التأسيس الى "التسلّف".

5 **إسلام السوق**، ص 24

من حيث هو فهم ديني جديد له ممثلوه ودعاته ووسائطه ومفاهيمه الحيوية. قد يكون الأمر صحيحا متى تبنّينا منظورا ماكرويا وشموليا يختزل الواقع العربي والإسلامي بتعدديته، إلا أنه يفتقد للدقة السوسيولوجية والتمثيلية المطلوبة لخصوصية كل واقع اجتماعي من منظور ميكروي.

-5 لا شك أن التحول الكبير الذي عرفه الفضاء الإسلامي مثير للملاحظة وجدير بالتأمل، غير أن الاستنتاجات التفسيرية السريعة التي قدمها المؤلف جعلتها أحيانا تبتعد عن الدقة في تمثيل الواقع العربيى والإسلامي، سيما بعد الحراك العربي بسيناريوهاته المختلفة. ونستطيع أن نؤكد أن الانقياد لأطروحة «هايني» والاستسلام لبنائها الذكي وشكلها اللامع، دون الحذر من منطلقاتها النظرية وبنائها المشدود إلى الخلاصة المراد إيصالها، يسقطنا في تصور تطوري (Evolutionniste) ينطلق من وجود وحدة في التاريخ العالمي مثلما لمس Haoues Seniguer[1]. فهل إسلام السوق يعد فعلا بديلا للإسلام السياسي، فقط لتمتعه بالدينامية والإبداعية التي أكدها "هايني"؟ وما مدى صحة الربط بين فردانية التدين والعلمنة، فهل نعد كل تدين فردي علمانيا بالضرورة؟ ألا يتضمن التدين الشعبي في بعض مستوياته ملمحا فرديا قويا هو أيضا؟

يبدو جليا إذن، أن المؤلف وهب نفسه حق القول بتآكل حركات الإسلام السياسي وتجاوزها بناء على شهادات انتقائية، وهذا يدفعنا للتساؤل عن القيمة المضافة لخلاصات بنيت على شهادات بعض الإخوان وتقييمهم النقدي لتنظيماتهم الداخلية. ألا يشي هذا التسرع في بدفاع مسبق[2] للباحث عن أطروحة انحسار الإسلام السياسي قبل كتابة إسلام السوق؟ أليس التسرع ذاته هو ما دفعه إلى استعمال مفهوم الطبقة الاجتماعية الذي لا يناسب المجتمعات العربية والإسلامية، بل حتى في الغرب ذاته، صار استعماله غير دقيق أمام وجاهة مفاهيم مثل الفئة الاجتماعية أو نمط الحياة أو مفهوم الشبكة المجتمعية (social networck).

ختاما لا يسعنا، إلا أن نؤكد أن فهم الديناميات الدينية الجارية في العالم العربي والإسلامي، تحتاج إلى أعمال ودراسات عديدة لتأطيرها علميا، ويحسب لمؤلف «هايني» أنه فتح مسارات دقيقة لمواكبة تعددية النماذج والحالات والتجارب الإسلامية التي تميز هذه المجتمعات.

1 Haoues Seniguer, op, cit

2 نجد ملامح اكتمال أطروحة الباحث قبل تأليف كتابه، وهو ما نلمسه بعد قراءته للحوار الذي أجراه مع "دونيس لينسيل" سنة 2003: م، س، ذ.

قراءة في كتاب «إسلام السوق» لباتريك هاني[1]

د. رشيد جرموني

«إننا نعيش في زمن أصبح الدين فيه بدون ثقافة»

أولفيروا

أولا: السياق والخلفيات والدواعي والمنهج

يشكل كتاب «إسلام السوق» واحدا من الكتب المثيرة للجدل، لا من حيث المسمى ولا من حيث المعنى والمضمون الثاوي في الأطروحة / الكتاب. إذ أننا نعتبر أن هذا المؤلف، أرضية لفتح النقاش والحوار والجدل مع تيار عريض من حركات الاسلام السياسي ومن منتسبي ما يسمى في بعض الأدبيات «بالصحوة الاسلامية». ذلك أن الكتاب يقدم رؤية نقدية مبنية على خلفية نظرية، وعلى عمل ميداني سوسيولوجي

من خلال تتبعه لمختلف التحولات التي طرأت في رؤية حركات الاسلام السياسي، وللمنتسبين لها أو المتعاطفين معها. سواء في البلاد العربية أو في البلاد الأوربية خصوصا فرنسا.

ويمكن اعتبار مجمل التحولات التي توقف عندها الباحث (هاني) معبرة بشكل او بآخر، عن صدمة الحداثة وما بعد الحداثة لهذه الحركات وللمشروع «الاسلامي» الذي تحمله، والذي كانت تدعي -هذه الحركات - انها أتت لكي «-تجنب» - مجتمعات العالمين العربي والاسلامي - مزالق التحديث والحداثة. فإذا بها تجد نفسها واقعة في شرك النيوليبرالية، وهذا ما يمكن تلمسه في وقوع شبه غياب للمرجعية[2] النظرية المؤطرة لميلاد حركات الاسلام السياسي، أو على الأقل وقوع تصدع في هذه المرجعية أو عدم الاجماع حولها من طرف الأجيال الجديدة (أو كما يسميها الباحث هاني، بالاجيال الناقمة داخل حركات الاسلام السياسي).

1 وجبت الإشارة إلى أننا اعتمدنا في قراءتنا لهذا المؤلف، على الترجمة العربية، التي صدرت عن مركز نماء للبحوث والدراسات، (ترجمة، عمورية سلطاني، سلسة، ترجمات، العدد، 2، سنة، 2015، الرياض/ المملكة العربية السعودية، لبنان، بيروت).

2 إيريك هوبزباوم، "عصر التطرفات، القرن العشرون الوجيز، 1914-1991"، ترجمة فايز الصياغ، مؤسسة ترجمان، المنظمة العربية للترجمة، (بيروت)، 2011

يقدم الكتاب جملة من الأفكار النظرية والتفسيرية معززة بالعديد من الأمثلة التي تبين، إلى أي حد وقع انزياح في أسلوب التدين عند حركات الاسلام السياسي وعند العديد من الأجيال الشابة التي تقتنع بالاسلام كفكرة وبالقبول بمنتجات الحداثة بشكل أصبح نمط التدين يتماهى مع قيم السوق، وهو ما سنعرض له في هذه القراءة.

يأتي كتاب «إسلام السوق»، في ظرفية سوسيوثقافية جد خاصة، حيث تبين أن مشروع الصحوة الاسلامية والحركات الاسلامية، قدفشل في تقديم نموذجها النقي للمجتمع وتحولها إلى مزيد من العلمنة وتقبل قيم السوق، كما يطرح ذلك كل من «أولف يروا» وجيل كبيل». هذا على الرغم من أن ثورات الربيع العربي، أوصلت البعض منهم إلى السلطة، لكن ذلك لا يعني أنها نجحت في مشروعها الفكري والأيديولوجي والذي كانت ترفعه، تحت مسميات «أسلمة الدولة والمجتمع».

ما يميز هذا العمل، هو أنه جاء نتيجة متابعات مكثفة للمعيش اليومي لأنماط التدين والتصرف والسلوك، سواء للأفراد او الجماعات المنضوية في حركات الاسلام السياسي. وأيضا تحليل الخطاب المروج في القنوات الفضائية، عبر ما يسمى في الأدبيات السوسيولوجية «بالدعاة الجدد». وقد كان لا فتا للاهتمام، كيف فكك الباحث «هاني» بنية الخطاب الذي تتداوله الأدبيات الجديدة لأبناء حركات الاسلامي السياسي، من مفاهيم ورؤى وأفكار وتصورات، خصوصا ما تعلق منها بالانتقال من جدلية السياسي والديني إلى جدلية جديدة تجمع بين الدين والاقتصاد. أو من خلال التبني، - لأبناء حركات الاسلام السياسي-، الساذج لأدبيات التنمية البشرية و«المانجمينت» والقيم البروتستانتية، التي تمجد النجاح الفردي، وهي كلها قيم ومسلكيات سبق أن عرفتها المجتمعات الغربية خصوصا ذات التوجهات الدينية البروتستانتية.

قبل أن نعرض لأهم ما جاء في هذا الكتاب الشيق والجدلي، يجمل بنا التوقف عند بعض المنطلقات النظرية التي أصبحت تؤطر وتشرط وضعنا الانساني عموما، حيث أن قيم الحداثة وما بعد الحداثة أصبحت توجه الجميع ولا تستثني أحدا، بل حتى الموروث الديني والتقليدي الذي لا زال مترسبا في الذهنية العربية والاسلامية، هو الآخر يتعرض للعديد من التحولات والتغيرات والانزياحات. فكيف يمكن أن نشرح ذلك؟

لا شك أن مجتمعاتنا اليوم تجد نفسها غارقة في **النزعة الاستهلاكية**، حيث الطقس الاستهلاكي المفرط لكل السلع والمنتوجات والقيم والرموز، أدى إلى بناء مجتمعات تنشد الخلاص الفردي وتبحث عن الربح بأي ثمن، وهو ما يضرب في العمق كل الايديولوجيات والفلسفات الكبرى التي كانت تؤطر المجتمع، وحلت محله قيم السوق بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وقد تولد عن هذه القيم الاستهلاكية، قيم جديدة تنحو نحو **الفردنة** والعزلة والغربة أحيانا، مما يقوض في العمق الروابط المجتمعية، الاسرة والقبيلة والحي وأشكال التجمع التي خلقتها حركات الاسلام السياسي،

خصوصا في المدن التي يكثر فيها هذا النمط من العيش. وإذا أردنا ان نفهم جيدا طبيعة هذه القمي، فإن الباحث «**لويك هولمان**»، يشير، إلى «كون مجتمعات التحديث وما بعد التحديث لم تعد تستمد توجهاتها القيمية من الدين ومؤسساته، وإنما من الاستقلالية الفردية، فكل فرد أصبح هو المرشد الاخلاقي لنفسه، وبذلك تراجع التوجيه الاخلاقي الجماعي لصالح الاستقلال الفردي الذي أخذ يملي على الافراد اختياراتهم الخاصة واساليب حياتهم[1]». ولعل أهم ما ميز الثورة المعلوماتية الجديدة، هو الصعود القوي لمجتمع «**الفرجة والتلذذ**» وطلب النجومية، يقول «بودريار: «لقد وصلنا إلى النقطة التي يحيط فيها الاستهلاك بكل شيء، حيث تتسلل كل النشاطات طبقا لنمط تركيبي واحد، وحيث ترسم مسبقا لوحة الاشباعات ساعة فساعة، فالاستهلاك هو طقس[2]». ولهذا من خلال هذه الفكرة يمكن أن نفهم كيف وقع ذلك الصعود القوي للدعاة الجدد عبر الشاشات التلفزيونية وكيف بدأوا يشكلون «موضة» ديني في هذا الحقل الديني الشديد التعقيد والتركيب.

وليس بخاف على أحد أن أهم ما يسم طبيعة المجتمع الشبكي، هو أن يصنع هويات جديدة، تعيش على وقع «مجتمع الانغماس في العوالم الافتراضية»، أو ما سماه أحد الباحثين الحياة الثانية (seconde life). في هذا الصدد يقول أحمد توفيق (وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية المغربي الحالي): «يجد المدمن على الوعظ الالكتروني نفسه في حالة تشبه اليتم، تقوي الشعور بالغبن والعزلة وتدفع إلى تضخيم الأنا وإلى الاعلاء المتطرف للذات[3]».

كل هذه الإفرازات التي برزت مع موجات الحداثة وما بعد الحداثة، كان لها بالغ التأثير على مجموع القيم والمسلكيات التي يتفاعل معها الانسان المعاصر، وهو ما تجلى بشكل كبير في الحقل الديني. لهذا فإن كتاب «إسلام السوق»، حاول أن يستدمج كل هذه المقولات، لقراءة واقع التحولات التي جرت في السنوات الاخيرة من القرن الفائت وبداية الألفية الثالثة.

ثانيا: في الدلالات والخلفيات النظرية لمفهوم السوق الديني

1- في الخلفيات النظرية لمفهوم السوق

لم يكن «باتريك هاني» هو الوحيد الذي استعمل مفهوم «السوق» في دراسته عن الاسلام، وعلى مجمل التحولات التي اعترت المشهد الديني الاسلامي، بل إن المفهوم يجد له تراثا نظريا يستمد أصوله من

---

1 خالد ميار الإدريسي، نقد قيم ما بعد الحداثة: نحو ترميم الذات الإنسانية، مساهمة وردت في كتاب جماعي، "سؤال الاخلاق والقيم في عالمنا المعاصر"، الرابطة المحمدية للعلماء، سلسلة ندوات(4)، تقديم، أحمد العبادي، تنسيق، عبد السلام الطويل، الدار البيضاء، 2011

2 نفسه.

3 أحمد توفيق، ("الكلام في الدين: أسسه وتجلياته» سلسلة الدروس الحسنية)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (الرباط)، سنة 2011

الحقل الاقتصادي ما هو معلوم، لكن تم توظيفه في إطار نظري أوسع، أو كنموذج تفسيري صالح للدراسة والتحليل. وهو ما نجده مثلا عند الباحث «اولف يروا» الذي رصد في كتابه «الجهل المقدس[1]»، الخلفيات النظرية التي تساعدنا على فهم مختلف التحولات التي عرفها الدين والتدين في عالمنا المعاصر، إذ يعتبر أن هناك نظريتان تؤطران الحديث عن هذا الموضوع وهما:

أ- نظرية التثاقف (Acculturation)

ب- نظرية السوق

بالنسبة للنظرية الاولى، فهي ليست جديدة داخل التراث الانثروبولوجي، بل تقوم هذه النظرية على فكرة أن التأثير في التحولات الدينية أو غيرها، تقتضي أن هناك نموذجا مسيطرا هو يتم الاحتذاء به، وقد يكون سياسيا أو فكريا أو إديولوجيا، وهو - أي هذا النموذج -، يتم استبطانه من طرف المغلوب الذي يخضع لسيطرة الطرف القوي. أو كما كان يقول سابقا «ابن خلدون» **أن المغلوب مولع بتقليد الغالب**». وهذه الفكرة تصدق على عمليات التثاقف التي تحصل في عالمنا المعولم، والتي لم تستثن أي حقل من الحقول، بما فيها أقدس الحقول وهو الدين. «ونظرية التثاقف تقتضي أن هناك ثقافة دينية مهيمنة تؤثر على الطرف المسيطر عليه (dominé)، وهذا ما يؤدي إلى وجود حالة من التدين «الهجين» و«التلفيقي». ولعل أطروحة الكتاب «إسلام السوق» تتبنى وتدافع عن هذا الطرح من خلال تتبع كيف وقع تحول هام في المشهد الديني عند المسلمين من اختراق ثقافة السوق للمقدس الديني وذلك عبر العديد من المجالات الحياتية.

ورغم أن الباحث «روا» قلل من قيمة هذه النظرية، لأنها تتجاهل الديناميات الداخلية التي تتمتع بها، كل ثقافة ديني على حدة. وأيضا لاننا لا نجد أنفسنا أمام استيلاب كلي للمغلوب لثقافة الغالب. إذ بقدر ما نتحدث عن تمازج هجين بين الثقافات، فإننا نجد أن أغلب الشعوب، تعيش نوعا من التلون الاستراتيجي»، الذي يعكس ذكاء هذا الشعب المغلوب، أو ذاك، في استيعاب ثقافة الغالب بطريقته الخاصة.

2- نظرية السوق: استدمج مفهوم السوق من الحق الاقتصادي ليندلق للحقل الديني، عن طريق العولمة التي خلقت موجة من التدفقات الكثيرة في عالم الرموز والافكار والقيم والدين وجعلت كل ذلك في متناول الفرد»

وهذه النظرية على خلاف النظرية الأولى، تستلهم بوعي أو بدونه الخلفية النيوماركسية خصوصا عندما تتحدث عن الاستلاب والاستغراب، والتي كان تنظر للدين باعتباره هيمنة وهيمنة مضادة. لكن نظرية السوق تستلهم بشكل آخر نظرية النيولبرالية». ولهذا فالتساؤل المهم الذي طرحه «روا» يتجلى في كيفية

1 Olivier Roy, la Sainte Ignorance: le temps de la religion sans culture, Editions du Seuil, Paris, 2008.

اشتغال السوق الديني؟ ما هي الوسائل التي يتعمد عليها؟ وقبل ذلك وبعده، ما هي الخلفيات الفلسفية التي تعتمل في هذا السياق؟

للاجابة يقدم الباحث المتخصص في الحركات الاسلامية، الفصل بين السجل الديني والسجل الثقافي، وكذا سقوط الهيمنة الاجتماعية والمؤسساتية التي كانت من قبل. **إنها نوع من العلمنة الصامتة التي تفعل فعلها في التأثير في إسلام السوق، حيث لا تعني العلمنة تهميش الدين كما هو سائد في الحس المشترك، ولكن عبر إزالة الحمولة الثقافية من الدين، وجعل منتجات هذا الاخير مستقلة بل محايدة وبدون هوية «ما سماه الباحث باتريك «بالسيولة».**

2- حول المفهوم: ما ذا يعني إسلام السوق حسب «باتريك هاني»؟

يقول «هاني» عن هذا المفهوم، «إنه مزيج من النزعة الفردانية المتعولمة ونزع للقداسة عن الالتزام التنظيمي بما يتضمنه ذلك من التخلي عن الشعارات الكبرى التي كانت تدعو إلى أن الاسلام هو الحل، وإعادة النظر في فكرة شمولية الاسلام لكل مناحي الحياة». إذا كانت قيم ما بعد الحداثة تتحدث عن موت الحقائق الكبرى، ومن بينها موت السياسية، فإن «إسلام السوق»، سعني في بعض تجلياته البارزة، التخلي عن الربط بين السياسية والدين والهوية، إلى موجة جديدة من التدين تربط بشكل تفاعلي بين قيم السوق/ الاقتصاد والدين. ولهذا فما يميز «إسلام السوق» هو كونه ليس «حركة مؤسسة على حزب أو تنظيم ولا تيارا أيديولوجيا كالسلفية، أو سياسيا كالإسلام السياسي، ولا يمثل مدرسة في الفكر الديني». **إسلام السوق حالة أو توجه قادر على التوطن والتأثير في كل حقائق الاسلام المعاصر. هذا التوجه يمكن أن يتجلى في بعض أنماط الحياة، وأشكال معينة من الدعوة، وحركية فكرية جديدة. ويمكن ان نلاحظ إسلام السوق لدى السلفيين والاخوان والصوفية. ويمكن أن نعتبر إسلام السوق في بعض المنتجات الهوياتيه (حجاب البحر، الاغنية الاسلامية، ...)**. وهذا يعني أن إسلام السوق يؤشر على وقوع تصدعات في العقل الباطن لحركات الاسلام السياسي، ولمنتسبيه، حيث يبرز نوع **من التدين، يبدو كحالة احتجاج داخلية هادئة على بعض النماذج الاساسية في الصحوة الاسلامية المعاصرة، بدء بفكرة الشمولية.**

ثالثا: مورفولوجية الكتاب/ الأطروحة

إذا ما أردنا أن نلخص أهم الأفكار التي يناقشها الكتاب، فيمكن الإشارة إلى أربعة عناصر أساسية:

أولا: يدافع الكتاب عن تبلور حالة ملموسة من التدين الفردي، تتجاوز مرحلة الاسلاموية(الفصل الأول).

ثانيا: الانتقال من التفاعل بين ما هو ديني وسياسي، إلى ما هو ديني واقتصادي، أوما سماه الكاتب ب (لاهوت النجاح)، (الفصل الثاني).

ثالثا: التماهي مع قيم «المانجمينت» داخل تنظيمات حركات الاسلام السياسي الكلاسيكية، أو حتى المحدثة حديثا، حيث أصبحت هي العملة الرائجة في هذه الأوساط، مما دفع الكاتب إلى استخلاص علاقة تثاقف غير واعية بين القيم الأمريكية في الاقتصاد وأشكال التدين الحديثة في التنظيمات الاسلاموية المنتشرة هنا وهناك.(الفصل الثالث)

رابعا: من التشدد في إبراز الطابع السياسي الديني لحركات الاسلام السياسي، إلى تبني القيم المحافظة الأمريكية في التسويغ لفكرة الدولة غير المتدخلة في الشؤون الاجتماعية، مما يعطي الانطباع أننا أمام نموذج جديد من الدول لا يمت بصلة بينه وبين شكل الدولة في السابق. كل ذلك دفع الباحث «هاني» إلى استخلاص أهم فكرة في التحول الذي طرأ في نوعية الحراك الإسلاموي، من التخلي عن فكرة الدولة الحامية إلى الدولة المنسحبة. وهذا ما يزكي طبيعة التقارب الذي حصل ويحصل بين الاسلاميين والقيادات الأمريكية في الآونة الأخيرة. (الفصل الرابع والأخير).

رابعا: من مرحلة الاسلاموية إلى مرحلة التدين الفردي

انطلاقا من خلفية سوسيولوجية، يشرح الباحث «باتريك» كيف وقع تحول في البنية الذهنية لمقولات حركات الاسلام السياسي، وذلك انطلاقا من تتبع تاريخي بدء من مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، إلى مرحلة بداية الالفية الثالثة، حيث وقع انزياح في مجموعة من المرتكزات التي أطرت الفعل الإخواني في ما مضى، ولعل من بينها العناصر التالية:

1- نزعة القداسة عن الالتزام التنظيمي: إذا كانت أهم مقولة ركزت عليها حركات الاسلام السياسي، لتبرير وجودها التاريخي والسوسيولوجي، هي مقولة التنظيم وبناء الهياكل والمؤسسات المؤطرة والوجهة بخطاب إيديوإسلامي، يستمد مشروعيته من قراءة معية للنصوص الشرعية، فإنه مع وجود ممارسة يومية مغرقة في التصلب والبعد عن الواقع، تشكل جيل جديد مشبع بثقافة نسبية للقيم وللرموز وللمنظمات والهياكل، سينتفض على كل تلك المسميات وسيرى أن تلك التنظيمات «الاخوانية» لا تمثل سوى مرحلة زمنية من بين المراحل التي قطعتها تلك التنظيمات، وأنها لم تعد تشكل المنتهى والمنطق عند الجيل الشبابي الحالي الذي بدأ يعبر عن قناعاته بمعزل عن التنظيم وعن مسلكيات ما سمي «بالإلتزام الإخواني». ولعل من بين مؤشرات هذا التوجه، هو بروز «حركية فردانية»، تتجاوز بكثير عقلية الاحتكار والوصاية والاستبداد وعدم القدرة على استشراف المستقبل. وإذا أردنا أن نتوقف عند مثال توضيحي، فهو ما جرى في الربيع العربي من

اندفاع قوي للشباب في الفضاء العام، مطالبين بالتغيير ورفض الاستبداد والتسلط، ومتجاوزين النسق المغلق لحركات الاسلام السياسي في العالم العربي وفي مصر بشكل اكثر تحديدا.

2- من المطلق إلى النسبي: لا يمكن فهم عمق التحول الذي حصل في العقل الإسلاموي، دونما الرجوع إلى مختلف الكتابات التي برزت في الآونة الأخيرة، والتي كانت تتحدث عن موجات التحديث التي انتشرت في العالم، من خلال مجموعة من المفاهيم المركزية، لعل من بينها تحطيم كل الأفكار الدوغمائية، وتجاوز كل المطلقات والحكايات الكبرى أو ما يسيمه البعض «السرديات الكبرى»، كناية عن وقوع تصدع في المنطلقات الوجودية التي كان يتأطر عليها الكثير من الشباب المنضوي تحت حركات الاسلام السياسي. وقد تجلى هذا الأمر، في رفض «الجيل الناقم» من أبناء هذه الحركات، كل التصورات الانغلاقية والمتقوقعة على الذات وأيضا «الشوفينية» والتمايز التي ميزت الجيل السابق. وهكذا أضحى الجيل الجديد أكثر انفتاحا في منطلقاته ومفاهيمه وفي لغته وفي خطابه. حيث أصبح يوظف مفاهيم عالمية بنفحة إسلامية، كمفهوم «الجهاد الإلكتروني» و«النسوية الاسلامية» .... وعوض مفهوم الخلافة الذي طالما تردد في أدبيات حركات الاسلام السياسي، سنجد مفهوم «الوحدة الإقليمية»، تماهيا مع مفهوم الاتحاد الاوربي.

إن جل هذه المواقف والخطابات والمفاهيم والتصورات التي بدأت تؤطر الحقل الإسلاموي الجديد، إنما تؤشر في نظر الباحث «هاني» عن مأزق وجودي أصاب الرؤية الفلسفية الكبرى التي كانت تتأطر عليها حركات الاسلام السياسي، متأثرة بوعي أو بدونه بمختلف الأدبيات والفلسفيات ذات النفس الحداثي وما بعد الحداثي، بل وحتى «العلماني».

3- ظهور أنماط جديدة من التدين: إذا كان العنصرين السابقين (نزع القداسة عن التنظيم وحلول المقولات النسبية) في مواقف وتصورات الجيل الشبابي الجديد، من أبناء حركات الاسلام السياسي، أ ومن غيرها ممن يشكلون قطاعا عريضا من المجتمع العربي والاسلامي، فإن الأهم في هذا التحول، هو ما يمكن ملاحظته في نوعية الممارسات والسلوكات اليومية التي تؤشر على نمط جديد من التدين. فكيف يمكن توضيح ذلك؟

أ- الأغنية:

شكل الفن واحدا من النقط السوداء في تاريخ الإسلام، وتحديدا عند التيار الأكبر من حركات الاسلام السياسي، سواء كانت إصلاحية او راديكالية أو سلفية متعصبة او علمية، أو حركات صوفية. لكن تحت ضغط المجتمع، ولان الفن هو أحد المكونات الأصيلة في النفس البشرية، ستضطر هذه الحركات إلى تبني شكل جديد من الفن وتحديدا الموسيقى، تحت مسمى «النشيد الإسلامي»، والذي بدأ في بدايته باستلهام الترانيم الدينية النضالية التي تتغنى بالشهادة وبالجنة وبالجهاد وبالتضحية وبالمعاناة، او ما يمكن تسميته بـ

«أدب المحن». على اعتبار أن هذه الحركات الاسلاموية تعرضت لنوع من التضييق والتسلط والتعذيب في مجموعة من الدول العربية (سوريا/ مصر، الأردن). وقد عرف هذا النوع من النشيد في حقبة السبعينيات والثمانينيات، انتشارا واسعا في صفوف الشباب، خصوصا عندما وانه تزامن مع وجود حروب وتوترات في بعض الدول، كأفغانستان والبوسنة والهرسك. إلا أن الأمر سيتغير بشكل راديكالي من ما سمي «بالأنشودة الدينية الملتزمة الإسلامية»، إلى نوع جديد من الأغنية الدينية التي تتماهى بشكل كبير مع أنواع من الفنون والأغاني الغربية التي كانت إلى عهد قريب مرفوضة من طرف حركات الاسلام السياسي، خصوصا إذا علمنا أن مواقف هذه الحركات، من الآلات الموسيقية كان محط جدل كبير. وحيث أن المجتمع لم يعد يقبل بتلك الترانيم الدينية المغرقة في التغني بالمحن والنضالية اليوتوبية، فإن الاستجابة ستكون من خلال الجيل الثاني والثالث من أبناء حركات الاسلام السياسي، خصوصا الذين يتواجدون بالديار الأوروبية والأمريكية، عبر إخراج نوع من الفن/ الأغنية تعانق كل انوع المعروضات التعبيرية الموسيقية - بما فيها الراب، والورك وغيرهما- وبكافة الأدوات الموسيقية المتوفرة، لكي يرضوا الجمهور الذي بدا متعطشا لهذا النوع من الأغاني التي يشعر فيها بالاسترخاء والسعادة والنشوة، بدل تلك التي تذكره بالموت وبالتعاسة وبالجهاد وبالمحن.

ب- من الحجاب الإسلاموي إلى الحجاب الإستهلاكي

ربما لا نبالغ إذا ما قلنا بأن أهم قضية أثيرت مع بروز حركات الاسلام السياسي، هو مسألة الحجاب/ الزي الإسلامي، الذي عبر عن إحداث قطيعة في ممارسات التدين الشعبية عند العديد من الفئات المجتمعية، خصوصا المتوسطة منها. وقد شكلت هذه القضية بؤرة الصراع الإيديولوجي في العديد من المواقع ومجالات الفضاءات العمومية. وغي خاف على أحد أن هذا اللباس كان عنونا في بدايته (حقبة السبعينيات من القرن الماضي) عن التزام إديولوجي وحركي إسلاموي. لكن الذي حصل في هذا السياق، هو أن قوة الخطاب الإقتصادي والماركتينغ التسليعي، شكل اختراقا لهذا اللباس بكل ما يعنيه من «حشمة» مدعاة، أو «تقوية» معبر عنها، أو حتى «طهرانية» دينية ما. حيث ستحول هذا اللباس من تعبير إديوإسلامي إلى مجرد لباس للتباهي والموضة والزينة، بل والتماهي مع آخر صيحات السوق التجارية، التي تتسارع وثيرتها في إقامة نوع من القطيعة بين حجاب الأمس وحجاب اليوم. وربما لا نبالغ إذا ما أكدنا أن هذا النوع من اللباس تأثر بمختلف التحولات القيمية التي تجري في شرطها العربي الاسلامي، بحيث أصبح عنونا عن إبراز مفاتن المرأة «المسلمة» بشكل يشبه شبقية من نوعية خاص، مؤطرة برداء الإسلام، لكنها في العمق تشتغل بأدوات السوق وفلسفته القائمة على العرض والظهور والاستعراض.

هكذا، يظهر من خلال التحليل السابق، أن كلا من نزع القداسة عن التنظيم، وبروز الفكر النسبي عند أبناء حركات الاسلام السياسي وغيرهم من الشباب، سيولد نمطا جديدا من التدين شكل شبه قطيعة من

النمط الديني الحركي، ويؤسس لمرحلة متجاوزة للإسلاموية إلى صيغة دينية يتعايش فيها الدين مع مختلف الثقافات والهويات والمسلكيات.

خامسا: التدين تحت ايقاع السوق

كثيرا ما كانت حركات الاسلام السياسي بشتى أطيافها وانوعها وبكل حواملها الفكرية والفلسفية، تنتقد المقاربة الاقتصادية التي نظر لها مؤسسة المدرسة الماركسية (كارل ماركس)، حيث كانت تعتبرها مقاربة اختزالية لا تستطع فهم السلوك الانساني. لانها تقوم على مسلمة أن العامل الاقتصادي هو محرك التاريخ. إلا ان مكر التاريخ كما يقول «هيغل»، سيعيد النقاش إلى عقر دار حركات الاسلام السياسي، عندما وقع تحول هام في تمثلها للديني، ولفكها الارتباط بين ما هو ديني/سياسي، لصالح رؤية جديدة، الديني في صالح الاقتصادي والاقتصادي في الديني. لكن الأمر الذي تنبغي الإشارة إليه في هذا السياق، هو أنه إذا كانت الماركسية ومعتنقيها تتمثل المقولات التفسيرية بشكل واع ومفكر فيه، فإن الذي حصل لمواقف وتصورات حركات الاسلام السياسي، ولغيرها من الشباب «الملتزم»، هو وقوعها بشكل غير واع في شرك المقاربة الاقتصادية، تحت ضغط ما يطلبه الجمهور. بمعنى آخر، أصبحنا أمام ميكانيزمات وآليات السوق، فكيف يمكن شرح ذلك؟

1- في فك الارتباط بين ما هو سياسي/ ديني إلى ما هو ديني/ اقتصادي

لا حظنا كيف انتقل الخطاب الاسلاموي من لغة المرجعيات الكبرى والنظرة الشمولية في التغيير والتأثير، إلى مقاربة تقنوقراطية خالية من كل إديولوجيا، وذلك جراء السيولة الكبرى للمفاهيم العولمة، مثل «البراغماتية» «والحقيقي هوالمفيد» «والبقاء للأصلح» «وما ينفع الناس هو الأقوى». وكل ذلك، جرى بشكل لا واع في مخيال ووجدان العقل الاسلاموي. لكن أهم تجلي لكل ما سبق، سيظهر في ما سيوفره السوق الاقتصادي من إمكانيات هالة لتسويق المنتجات الثقافية والرمزية بما فيها الدين، في بيئات متعددة ومختلفة ومتشابكة ومعدة أحيانا أخرى. هكذا سيجري تكييف «العرض الديني مع التوقعات الحقيقية أو المحتملة لجمهور مستهدف بدقة»، بدل الخطاب المرتكز على الينبغيات والمطلقات واليوتوبيات التي لا تتحقق ولن تتحق. إذ الجمهور يريد الجاهز والآني والمستظرف، بدل انتظار الذي يأتي أو قد لا يأتي. ومن خلال هذا التحول، سيتحول الجمهور الديني الواسع، من معتنق لإيدولوجيات مثالية وماهوية إلى سوق ديني يطلب ما يحتاجه في معيشه اليومي. حيث استهلاك الفتوى بكل حرية، بدون الرجوع إلى أهل «الحل والعقد»، وحيث ينتعش خطاب التسهيل والترخيص بدل التشدد والحدية، وأيضا سيحل خطاب ما ينفعه بدل لغة الحلال والحرام. لعل أهم تحول طرأ مع موجة تسويق «الإسلام»، هو ما عبر عنه الباحث «باتريك» بـ «التفكير في الاسلام كمنتج موجه إلى مستهلكين»، انطلاقا من مقولة تأطيرية جد هامة: «لا يجب أن ننشد الفضائل المطلقة من منطلقات دينية، ولكن عبر بيعها من خلال **فاعليتها الاجتماعية**».

ولا يتوقف الباحث عند إطلاق مجرد إطلاق أحكام جاهزة، بل إنها مؤسسة على تتبع ميداني، مسنود بخلفية تفسيرية. إذ يعتبر الباحث المتخصص في حركات الاسلام السياسي، أن فك الارتباط بين الدين والسياسة من جهة، والانتقال إلى توطيد العلاقة بين الاقتصاد والدين، عبر عملية ترويج الدين بشكل جماهيري، كان من ثماره، عمليتان متعارضتان لكنهما يصبان في نتيجة جد مؤثرة في البناء الفلسفي للدين برمته.

فالعملية الأولى، هي «تغلغل متزايد للمنتجات الدينية في الحياة الاجتماعية من خلال الثقافة الجماهيرية». أما الثانية: فهي، «تكوين توجه ديني جديد يميل إلى تخفيف حدة الدرس الديني السلفي (تغير ملحوظ في أنماط السلوك المرتبطة بالثقافة الدينية»). أما نتيجة ذلك، فهو حصول «**علمنة» للمنتجات الثقافية والرمزية المعبرة عن الهوية الاسلامية** (كاللباس أو الغناء او الترفيه، أو ممارسة الجنس أو غيرها من الأنشطة اليومية). وكل ذلك يسمح باستنتاج مسألة أخرى تابعة لعملية العلمنة، وهي إعادة تشكيل «الهوية الدينية» بالانتقال بها من حالتها الكلاسيكية الأولى، إلى صيغة جديدة مبتكرة، **يقل فيها الحضور المرجعي للدين**، باسم التحرر تارة، وباسم الربح تارة أخرى، والترفيه عن النفس تحقيق المتعة والسعادة، عبر استهلاك منتجات الحداثة، لكن بطريقة محترسة وملتوية وتلفيقية حتى، باسم أخلاقوية منشودة. لكن التساؤل الذي قد يطرحه القارئ لكتاب «إسلام السوق»، كيف يمكن التدليل على هذه الخلاصات؟ وكيف تجري عملية الربط بين الدين والاقتصاد، في سوق استهلاكية لا تبقي ولا تذر؟

2- المسلم المعاصر والدخول في موجة البرجزة

رغم أن الخطاب الديني التقليدي، سواء عند الفقهاء الكلاسيكيين أو حتى عند حركات الاسلام السياسي، كانت تتمثل الفقر كقيمة روحية ومعنية تساعد المسلم على تأدية واجباته التعبدية على احسن وجه، فإن الموجة الجديدة التي اخترقت كلا المرجعيتين، عملت على استلهام المقولات البروتستانتية (وأعتقد أنها تمت بدون وعي وبدون استحضار خلفياتها السوسيوتاريخية)، التي تؤكد على قيم النجاح والربح والاغتناء المادي. وهكذا ستصبح منتجات الحداثة المتقدمة والمتطورة، -من سيارات فارهة، وهواتف ذكية، ولوحات إلكترونية أخاذة، ومن شقق فاخرة وما إلى ذلك-، مجالا مفضلا للبورجوازية الاسلاموية الناشئة، سواء في أوربا أو في دول الخليج العربي. وستوفر هذه التجارة أرباحا طائلة، بل أكثر من ذلك، ترقيا اجتماعيا وتميزا طبقيا في البناء التنضيدي للمجتمع. وقد لا يستغرب المرء، عندما يجد من المفارقات المعبر ة عن هذا الوضع الشيء الكثير، فإذا كان السلفي الإخواني، - يرفض بالأمس شرب «كوكا كولا»، كمشروب يعتقده استعماري وغربي-، فإن نفس الشخص، سيقوم بعملية تحريف للإسم لكي تصبح «مكة كولا» مثلا، حتى يتسنى له شربها بل وبيعها في الاسواق العالمية عبر شركات منافسة للمشروب الأصلي. إنها في نظرنا عملية قلب للمعاني وللرموز وللمنتجات المادية، مع إقحام الصبغة الدينية عليها، لكي تجد لها طريقا نحو الترويج والذيوع. إنها بلغة صاحب الكتاب عملية «تشفير الهوية الدينية».

ولعل هذا التلفيق والترميق الاسلامي لمنتجات الحداثة، هو ما يبين في العمق أننا أمام وضعية جديدة، تتمايز فيها عن سابقتها من الوضعيات، إذ تصبح «**العلاقة بين الاسلمة والعلمنة ليست إذن متناقضة بالضرورة، بل إنهما عمليتان متقاطعتان تحدثان بالتزامن. فمن جهة، تتأسس أشكال ثقافية جديدة تحمل طموحات دينية، مثل «توفير الملبس الاسلامي للجالية»، أو «الدعوة عبر الأغاني». ومن جهة ثانية، هناك عدد من الاستجابات الاستراتيجية التي تقدم لعالم ينظر إليه بوصفه عالما بعيدا عن الله».**

3- من التقوية التأملية إلى استلهام ثقافة المانجمينت

لم يكن بمقدور البروجوازية الاسلاموية الناشئة أن تجد لها مكانا في السوق العالمية، وفي عالم الأعمال والمال و«البيزنيز» والماركتينغ، إلا بإحداث ثورة على مستوى المفاهيم والتمثلات والرؤى. فقد بدا واضحا كيف انتقلت أفكار السوق بما يعنيه من تملك لروح المنافسة والمغامرة والمخاطرة، إلى جسم الأجيال المتلاحقة من أبناء حركات الاسلام السياسي، والتي لم تعد تؤمن بالعمل التطوعي أو الخيري، او حتى التعاوني في شكل تنظيمات وهياكل ومؤسسات، بل بدأت تخلق لنفسها مجالات لتحقيق النجاح الفردي. في هذا السياق، برز مفهوم «المتعهدون الدينيون» وهم فئة من الشباب الطموح والذي حصل على درجات عليا من التعليم، وينتمي لأصول عائلية بورجوازية، كعمرو خالد، وطارق سويدان وغيرهم، ممن توفرت لهم شروط لكي يقدموا خطابا مغايرا عن السائد والمعهود والمكرر، والذي كانت تروجه حركات الاسلام السياسي. حيث استطاعوا معانقة الجمهور الواسع عبر شاشات التلفزيونات العربية الفضائية، وبدأوا في الترويج لمجموعة من الأدبيات، ذات الأصول البروتستانتية الأمريكية المنشأ، لكنها اجتزأت من سياقاتها السوسيوحضارية، لكي تنزل على بيئة عرب-إسلامية، مغرقة في التخلف، لكنها ستستطيع التأثير في العديد من الشرائح، لانها خلفت باسم أخلاقوية دينية متلحفة بلحاف اقتصادي مالي.

ولتوضيح الأمر جيدا، يمكن الإشارة إلى العديد من الأمثلة التي ساقها الكاتب، أو التي يمكن استحضارها في هذا السياق: كالاستثمار في المدارس الخصوصية سواء في تركيا أو مصر أو المغرب أو غيره من البلدان التي تعاني من تراجع مستوى التعليم العمومي بها، وقد كان لافتا أن يتم الاهتمام بهذا القطاع، نظرا لكونه من القطاعات التي تدر أرباحا سريعة، وأيضا لكونه يقدم خدمة إيديوإسلاموية للمجتمع، عبر إضفاء الصيغة الدينية في شكلها الناعم. ولهذا فإن الخلاصة التي يمكن الوقوف عندها، تتجلى في ما يلي: «يتشكل إذن لاهوت النجاح الاسلامي بامتياز يعكس ترسيما أديولوجيا لحركة أسلمة برجوازية الطابع، ويدافع عن علاقات مريحة مع مفاهيم الثورة والنقود. ويتوزع اللاهوت على مجموع الفاعلين المسؤولين عن تشجيع إسلام السوق، على رأس القائمة يقع دعاة عصريون وإسلاميون ناقمون».

سادسا: من مقولة إقامة دولة «الخلافة» إلى مقولة الأمة هي الأصل

سيندهش العديد من المتتبعين إلى ان من بين الأعطاب التي ميزت فكر حركات الاسلام السياسي، هو ادعاؤهم أن دولة الخلافة سقطت بحلول سنة1920 وأن مبرر وجود الحركة الإخوانية بمصر-كأكبر تجمع للإخوان المسلمين بالوطن العربي- كان هو إعادة تأسيس «دولة الخلافة»، على أسس «إسلامية»، محضة. لكن الغريب والمفاجئ، هو أنهم لم ينشغلوا بالحفر العلمي والأكاديمي في موضوع الدولة، بل اعتمدوا على مقولات أقل ما يقال عنها انها ذات منحى موغل في العاطفية، من خلال «الخطب الوعظية لحسن البنا». وقد كان الأمر أكثر مدعاة للإشفاق عندما كانوا بوعي أو بدونه يطمحون لإقامة تجمع «إسلامي» خالص، لتكوين هذه النواة الصلبة بلغة «سيد قطب». إلا أنه بفعل عميلة النقد والنقد الذاتي لهذا التراث، وأيضا بشكل أكثر منه قوة، هو التحول الذي طال فكر الأجيال المتلاحقة من أبناء هذه الحركات، فقد انقلب الأمر رأسا على عقب، عندما بدأت طلائع هذا الجيل في بداية التسعينيات من القرن الماضي، تنظر لدولة منزوعة الصلاحيات، اللهم الجيش والعملة والخارجية، حيث أن كل القطاعات الحيوية في أي بلد ستؤول للمجتمع المدني/ او بصطلح بعض الإسلامويين «الأمة» كتصور ماهوي، وهو يقصد به، المجتمع في عمومية. حيث هو الذي يسهر على السياسات العمومية الرئيسة: كالتعليم والصحة والقضاء والعمل الاجتماعي وكل ما يتعلق بالمجتمع. لكن بتأمل هذه الأفكار، سنجد أنها لم تكن نابعة من خلال رؤية عميقة لفهم مختلف الميكانزمات المقعدة للدولة الحديثة، بقدر ما كانت نقلا مشوها لبعض الأفكار التي تروج في الولايات المتحدة الأمريكية حول «دولة» متخففة من الصلاحيات الكلاسيكية. ولهذا فإن مجموعة من الصيحات التي بدأ يروج لها بعض الاسلامويين، تظهر في هذا الاتجاه، مما يؤكد أننا دخلنا مرحلة فارقة في طريقة تمثل هذه الحركات لمفهوم الدولة.» ففي أنحاء العالم الاسلامي، يبدو إذن أن تحول الحركات الاسلامية نحو السوق ونحو سياسة قائمة على الأخلاقية وعلى الأعمال الخيرية كبديل للتخلص من أعباء الدولة البيروقراطية ما بعد الاستعمارية، هو الذي يشكل القاعدة. ذلك لأنه وبدلا من المواجهة التي توخاها المنظرون الاسلامويون، من المودودي إلى سيد قطب مرورا بمصطفى السباعي، والذين آمنوا رفقة هذا الأخير بـ «اشتراكية الاسلام»، يتم الآن العمل في إطار اقتصاد السوق باستخدام الورقة الرابحة التي يمثلها الدين التعهدي، والتموقع في سياق الحركة العالمية التي تمثلها «التقليدية الجديدة» تلك التي تستهدف إدراج الاقتصاديات الحديثة داخل النظم الدينية التقليدية.

وربما نجازف بالقول، إن هذه الرؤية هي التي لم تسمح لحركات الاسلام السياسي من الانخراط في الثورة أو الحراك العربي الذي شهدناه في السنوات الاخيرة، لانها لا ترى فائدة من تغيير هذه الدول عبر طريق الثورة او الحراك، بقدر ما تنهج خط التغيير من الداخل، أي بالتركيز على المجتمع، ولعل ذلك ما يبرز في نظرنا انحسار الفكر الاجتماعي والديمقراطي في هذه الحركات السنية على عكس الحركات ذات

المنزع الشيعي، ومن جهة أخرى، يظهر ما طرحه الكاتب «هاني» من اختراق قوي لمقولة السوق في البناء الذهني لمجموع الأفراد المتأثرين بالفكر الاسلاموي وما بعد الاسلاموي.

سابعا: آفاق للتساؤل والنقاش والتحاور

يمثل كتاب «إسلام السوق» واحدا من الكتب المثيرة للجدل، والتي تستحق القراءة والتدارس والمناقشة، لانه لم يتوقف عند مجرد التجميع المعلوماتي للمعطيات التي تفاعلت في سلوكات ومواقف الأجيال المتلاحقة من أبناء وبنات حركات الاسلام السياسي، ولا حتى عند عموم المجتمع العربي الاسلامي، سواء في البلاد العربية، او في البلاد الأوربية والأمريكية، بل إنه الكتاب/ الأطروحة، طرح مجموعة من الأفكار التي تعتبر بحق معبرة عن عمق التحول الذي ميز مسيرة الاسلام السياسي. فعلى الرغم من أن حركات الاسلام السياسي، تدعي انها أتت لكي تواجه و«تصحح» موجة الحداثة وما بعد الحداثة، لكنها عمليا لم تستطع ذلك، لأنه تفتقد إلى رؤية ومشروع فكري وفلسفي عميق، ولانها أنتجت مفاهيم ومسلكيات طالما تبين عدم قدرتها على الصمود، امام المد الجارف لقيم السوق والعولمة والنيوليرالية. فإذا كان أحد المنظرين الإسلامويين، يدعي أن هذه الحركات، استطاعت ان تعيد كتابة تاريخها الخاص، بعيدا عن التأثر والاستلاب لقيم التحديث والحداثة، فإن الوقائع المبسوطة في هذا الكتاب، اوغيره من الأحداث والتحولات، تبين أننا أصبحنا امام تدين بصيغة الفرد بدل الجماعة، واننا نعيش زمن التسليع الديني في كل شيء حتى أقدس الأشياء أصبحت تباع وتشترى، كالحج والعمرة والحجاب وما إلى ذلك من طقوس دينية تحولت بفعل الماركتينغ الديني غلى سلع رمزية تباع وتشترى كما تباع وتشترى كبقية المنتوجات. أما الخطاب «الدعوي» بدوره، فقد تحول بفعل وجود متعهدين دينين جدد، إلى وسيلة لترويج قيم استهلاكية يغيب فيه المعنى ويحضر فيها منطق السوق والبيع والشراء، تأمل كيف بدأ هؤلاء المتعهدون بتقديم منتوجاتهم «الدينية» كأشرطة الوعظ والارشاد والتنمية البشرية والنجاح الفردي والتفوق الإداري وتحقيق المعجزات، كما تقدم مباريات الكرة وحفلات الغناء. إننا نعيش زمن تحول القيم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. أضف إلى ذلك، أن حركات الاسلام السياسي، لم تستطع ان تحدث نقلة في تغيير الاوضاع الاجتماعية والسياسية والجيواستراتيجية، بفعل تبنيها لخطاب مغرق في المحافظة، والاستقرار بدعوى عدم إحداث التغيير المفاجئ والثوري، ولعل ما وقع من أحداث في السنوات الخمس الأخيرة كفيل بإبراز مدى الاخفاق المدوي لهذه الحركات، مما ولد وسيولد ردة فعل في اتجاهين: الأولى، ذات طبيعة راديكالية يقودها «داعش» بتبنيه لخطاب العنف والتدمير والدمار، والثانية، ذات منزع استهلاكي تسليعي لأقدس الرموز وهو الدين، حيث أصبح الدين سلعة من بين السلع التي تروج في سوق كبير اسمه «إسلام السوق».

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016